فى البحث ، ولطرق جديدة فى الاستقصاء .. طرق التجربة والملاحظة والقياس ، ولتطور الرياضيات فى صورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح ، وتلك المناهج إنما أدخلها العرب إلى العالَم الأوروبى » (١) .

* *

● **الإسلام يوحِّد بين الدين والعلم :**

وبهذا يتضح لنا أن لا مجال فى الإسلام لدعوى التعارض أو العداوة بين الدين والعلم ، فالدين فى الإسلام علم ، والعلم فيه دين . كما تشهد بذلك أُصول الإسلام وتاريخه جميعاً . فالدين فى الإسلام علم ، لأنه لا يعتمد على الوجدان وحده ، بل يقوم على النظر والتفكير ورفض التقليد الأعمى ، والاعتماد على البرهان اليقينى لا على الظن واتباع الهوى .

والعلم فى الإسلام دين ، لأن طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وهو فريضة عينية أو كفائية ، تبعاً لحاجة

---

(١) « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام » ص ٣٨٢ ، ٣٨٤

الفرد أو حاجة المجتمع . والاشتغال بالعلم النافع - دينياً كان أم دنيوياً - عبادة وجهاد فى سبيل الله . وهذه حقيقة شهدها وشهد بها كثير من الباحثين والمؤرخين الغربيين . ولا بأس أن نذكر هنا بعض هذه الشهادات تأكيداً وتثبيتاً لمن تهمهم أقوال الغربيين .

يقول العلامة « هورتن » : « فى الإسلام وحده تجد اتحاد الدين والعلم . فهو الدين الوحيد الذى يوحِّد بينهما . فتجد فيه الدين ماثلاً متمكناً فى دائرة العلم . وترى وجهة الفلسفة ووجهة العلم متعانقتين ، فما واحدة لا اثنتان » .

ويقول « إتيان دينيه » : « إن العقيدة الإسلامية لا تقف عقبة فى سبيل الفكر ، فقد يكون المرء صحيح الإسلام ، وفى الوقت نفسه حر الفكر ، ولا تقتضى حرية الفكر أن يكون المرء منكراً لله . لقد رفع « محمد » قَدْر العلم إلى أعظم الدرجات ، وجعله من أول واجبات المسلم . ويقول : « يوزن يوم القيامة مِداد العلماء بدماء

الشهداء » [1] ، ورفع فضل العلم على فضل العبادة » [2] .

* *

● مشكلة التعارض بين الدين والعلم وأين نشأت ؟

وإذا كان هذا موقف الإسلام من العلم ، فمن أين نشأت مشكلة التعارض بين العلم والدين ؟

الحقيقة كما يقول الإمام الأكبر الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود [3] :

---

(١) حديث ذكره الغزالى فى كتاب « العلم » من « الإحياء » وقال الحافظ العراقى فى تخريجه : أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف .

(٢) كحديث : « فضل العالِم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » ، رواه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال : حسن صحيح .

(٣) من بحث عن « شخصية المسلم » ألقاه فى المؤتمر الرابع لـ « مجمع البحوث الإسلامية » .

« إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم ، إنما نشأت فى أوروبا بعيدة عن الجو الإسلامى ، إنها تصوِّر نزاعاً فى بيئة بعيدة كل البُعد عن الروح الإسلامية ، التى حثَّت الإنسانية على التعليم والتعلم ، والتى نشأ المنهج العلمى - الذى يعتبرونه حديثاً - بين ربوعها ، قديماً بقدمها ، والتى أنشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة ، لا تزال تكشف كل يوم الكثير من أنحائها العميقة .

« وما من شك فى أن الحضارة الإسلامية هى - كما يقول الأستاذ « بريفولت » - التى قدَّمت إلى الحضارة الغربية الحديثة المنهج العلمى وأُصول العلم نفسه ، أى الحقائق المكتشفة فى المجالات المختلفة .

« والأمر العام الذى نريد أن ننبه عليه ، هو : أن مسألة التعارض بين الدين والعلم ، إنما هى مسألة وهمية إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر .

« ذلك أن العلم وممثليه الحقيقيين : يعترفون فى صراحة لا لَبْس فيها ، وفى وضوح لا خفاء فيه : بأن دائرة أبحاثهم ، إنما هى المادة ، وإنما هى المحسَّ ، وأنهم يعتمدون فى ذلك

على التجربة ، وعلى الملاحظة ، إنهم يعتمدون على الاستقراء على وجه العموم ، وليس الاستقراء إلا تتبع جزئيات مُحسَّة ، تتبعها بالملاحظة ، أو بإجراء التجارب عليها . والمنهج العلمى إذن : إنما هو منهج لمعرفة كيفيات المادة ، وإذا ما خرج الأمر عن دائرة المادة ، فقد خرج عن دائرة العلم .

« وعلى هذا الأساس : فليس للعلم مطلقاً دخل فى أُمور الدين - إثباتاً وإقراراً ، أو نفياً وإنكاراً ، وإذا ما قال قائل : إن العلم يثبت كذا من الأُمور الروحية ، فإنه يكفينا منه هذه الكلمة ، لنسحب ثقتنا به كعالِم ، وإذا ما قال : إن العلم ينكر كذا من الأُمور الروحية ، فإن هذه الكلمة تكفى أيضاً لسحب ثقتنا به كعالِم ، إذ أن العلم فى المجال الروحى ، لا يثبت ولا ينفى ، وهذا واضح مما سبق أن ذكرناه .

« ومع ذلك فقد يتيح العلم بأبحاثه فى ارتباط الكون وتنسيقه وإبداعه ، والتناغم الذى يسوده ، والدقائق الباهرة التى يبينها « علم التشريح » - مثلاً - فى التركيب الحيوانى ،

قد يتيح العلم من كل ذلك لعلماء الدين مواد يبنون عليها تذكيرهم وعظاتهم ، وبيانهم : أن العالَم لم يكن نتيجة الصدفة العمياء أو الاتفاق الأصم ، يبينون من نتائج العلم أن الآيات فى مجال المادة نفسها تشهد أنها من صنع الله الذى أتقن كل شىء : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ » (١) .

* *

● العلوم لا تعارض الدين بل تخدمه من جهتين :

ويزيد أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز هذا الأمر إيضاحاً حين يتحدث عن مراتب العلوم من حيث مقوِّمات موضوعاتها ، فيبيِّن أن لا اشتراك بين الدين والعلم فى موضوع ما ، ولهذا لا يعقل التعارض بينهما . وإنما يُتصور التفاهم وحُسْن الجوار على الأقل ، إن لم يكن التعاون والتضامن .

يقول - رحمه الله - فى كتابه القيم « الدين » : « ولو أننا أخذنا فى تصنيف موضوعات العلوم ، لا باعتبار شرف

---

(١) فصلت : ٥٣

غايتها المباشرة ، بل بحسب مقوِّماتها النوعية ، وتكامل عناصرها بالازدياد التدريجى ، لحصلنا بينها على هذا الترتيب التصاعدى نفسه ، إذ نرى كل واحد منها يحتوى ما قبله ويزيد عليه عنصراً جديداً : فالحياة النباتية تستلزم وجود الجسم بأجزائه ، وجزئياته ، وعناصره ، وذَرَّاته ، وطاقاته ، وتزيد عليه وظائف أخرى . والحياة الحيوانية تحتوى الحياة النباتية بجميع وظائفها ، وتزيد عليها . والحياة الإنسانية فيها كل الحياة الحيوانية ، وتزيد وظائف أعلى . وهذه الوظائف نفسها طبقات بعضها فوق بعض ، وأعلاها الوظيفة الروحية التى تتطلع إلى الحقيقة الكبرى .

« هذا البيان يرينا على أى وجه يمكن أن نفهم الصلة بين العلم الإلهى (علم الدين) وسائر العلوم (طبيعية ، أو رياضية ، أو فلكية ، أو نفسية ، أو اقتصادية ، أو منطقية ، أو اجتماعية ، أو تاريخية ، أو لُغوية ، أو غيرها) ، وأنها ليست صلة وحدة فى الموضوع ، ولا اشتراك فى الأهداف ، إذ مهما تعالج هذه العلوم من مشاكل ، فليس واحد منها يتصدَّى لعلاج المشكلة الكبرى التى انتهض الدين

لحلها . إنها كلها تبحث عن الكائنات ، وليس شيء منها يبحث عن مبدئها الأول وغايتها القصوى . غير أنها كلها تستطيع أن تزجى لهذا المطلب خدمة ما . من قريب أو بعيد ، ولن يستغنى الدين عن العلوم إلا لو استغنت المقاصد عن وسائلها ومقدماتها ، أو الدعاوى عن حججها وبيِّناتها ، فكما أن المجهول لا يُتوصل إليه إلا عن طريق المعلوم ، والغائب لا يُدرك إلا على ضرب من القياس على الشاهد ، كذلك الحقائق العليا لا يسهل الصعود إليها إلا على سلم من حقائق الدنيا .

« فإن بعدت صلة بعض العلوم بالدين ، وعجزت عن أن تقدِّم له مَدَداً إيجابياً ملموساً ، فإنها - بما تبدِّد من ظلمات الأوهام . وبما تبعث من النور فى جوانب النفس - تقوم بوظيفة تطهير وتنقية ، لا بد منها لتهيئة جو عقلى صالح لاعتناق العقائد السليمة ، حتى إذا ركن القلب إلى شيء كان ركونه إليه على بصيرة وبيِّنة ، لا مدفوعاً بحمية الجهل ، ولا منقاداً بسذاجة المحاكاة : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

---

(١) الزمر : ٩

« ومهما يكن من أمر ؛ فالمعقول أنه إن لم يكن بين العلم والدين تعاون من قريب ولا بعيد ، كان بينهما على الأقل من التفاهم وحُسْن التجاور ما بين فروع الصناعات المختلفة ، إذ ليس يُعقل أن يكون هناك تعارض وتناقض بين أمرين لا اشتراك بينهما فى موضوع واحد .

* *

● **تفسير المصادمات التى وقعت بين العلم والدين :**

« وهنا يحق لنا السؤال عن تفسير تلك المصادمات العنيفة ، التى ظهرت فى التاريخ غير مرة ، بين العلوم والأديان . لا نعنى ذلك الصراع الصورى الذى يُسْتَغل فيه اسم العلم أو الدين أحياناً ، ليكون ستاراً للمقاصد الخفية ، والمطامح المختلفة ، من الثروة ، والنفوذ ، والجاه ، وسائر المصالح العاجلة ، كما لا نعنى الصراع الحقيقى الدائم بين النزعات الروحية السامية ، التى تدفع إلى التضحية وضبط النفس والاعتدال ، وبين النزعات المادية المضادة التى تهدف إلى الفوضى والإباحة والاستئثار . وإنما نطلب تفسير تلك المعارضة الفكرية التى تقع بحُسْن نية بين

المعسكرين العلمى والدينى ، فيقف كل واحد منهما موقف التكذيب والإنكار لما عند الآخر .

« والجواب أن هذه المعارضة تحدث - فيما نعلم - على إحدى صورتين :

« الصورة الأولى : أن يقف أحد الطرفين موقف المعارضة لما عند الآخر جملة ، لا بناء على حُجَّة تدحضه ، أو شُبهة تضعفه ، بل عفواً واعتباطاً ، أو لمجرد جهله به ، ظناً منه أن كل ما لم يدخل فى دائرة علمه فى الحال فليست له حقيقة . وهذا لعمرى من قصر النظر ، بل من الجهل والغرور ، فإن التكذيب بما لم يحط الإنسان بعلمه ولم يأته تأويله ، خطأ لا يرتكبه الراسخون فى العلم والدين ، وإنما يقع فيه المغرورون من العامة أو « أنصاف المتعلمين » ، وهؤلاء أشد خطراً من الجهلاء ، لأن علمهم فى الحقيقة جهل مركَّب ، وإنما الإنصاف أن يكون كل امرىءٍ عارفاً بقدر نفسه ، واقفاً عند حده ، بنَّاءً غير هدَّام .

والسبيل القاصد فى ذلك أن يثبت كل فريق ما وصل إليه ، ولا ينكر ما لم يصل إليه .

« وقد رأينا العلماء المتخصصين فى فرع من العلوم الطبيعية أو العقلية يعتمدون النتائج التى وصل إليها المتخصصون فى فرع آخر منها - كل فى نطاق تخصصه - ولا ينتظرون أن يعيدوا كلهم ما جرَّبه أو برهنه بعضهم ، وهذا هو الوضع السليم الذى تتقدم به المعارف الإنسانية ، إذ لو وجب أن يعيد كل عالِم بحث كل مسألة بنفسه ، لما تقدَّمت العلوم خطوة واحدة .

« وكذلك ينبغى أن يكون الشأن بين حَمَلة العلوم وحَمَلة الأديان . .

« ألم يُجْمِع العلماء الآن على إمكان تحطيم النواة الذَرِّية ، واستخدام طاقتها الجبَّارة فى صنع الأعاجيب ، مع أنه لم يباشر هذه التجربة منهم إلا نفر قليل ؟ فماذا يمنعنا أن نؤمن بالتجارب الروحية المتكررة التى شهدها الأنبياء وأرباب البصائر النيِّرة فى مختلف العصور ، وإن لم يشهد الناس منها إلا نتائجها الخارقة ؟

« إنه إذا كان من واجب الأديان أن تهادن العلوم ولا تنابذها ، وكان من الخير لها أن تستثمر كافة المعارف البَشرية وتتسلح بنتائجها ، فإن من الخير للعلوم كذلك أن تدع الأديان تكمل ما فيها من نقص ، وتملأ ما تتركه فى النفوس من فراغ ، بما يملؤه من الحقائق الروحية ، فإن لم تفعل فلا أقل من أن تلتزم شقة حياد ، فلا تعادى الأديان ولا تنكرها جملة ، فإن إنكار الدين جملة إنكار ضمنى لأُمور واقعية ، تحتويها الأديان كلها ، ولا يحتويها علم من العلوم ، ألا وهى عناصر الإيمان بالحقيقة العليا وتقديسها وعبادتها . . معان هى من مادة الحياة التى قد يفسِّرها العلم ، ولكنه لا يخلقها ، وقد ينقب عن أطوارها ويتفهم نشأتها ، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل وجودها ، أو يدَّعى لنفسه أنه يحل محلها » .

« الصورة الثانية : أن تكون هناك مسألة أو مسائل معيَّنة تنطق فيها العلوم والأديان بحكمين متناقضين . وإنما يحدث ذلك حينما تتناول الأديان إلى جانب عنصرها الروحى شيئاً من موضوعات العلوم وحقائق المشاهدات ، وتذهب فى

ذلك مذهباً معيَّناً ، تفرضه على المتدينين بها فرضاً . فهذا الجانب وإن كان عَرَضياً فى الأديان ، وكان سبيله فى الغالب سبيل الوسائل لا المقاصد ، إلا أنه يُعَد معياراً لمقدار ما فى كل دين من صحة أو فساد ، على قدر اتفاقه مع مقررات العلم الصحيح وقضايا العقل السليم ، أو اختلافه معها ، فإنه إذا كان الدين حقاً ، والعلم حقاً ، وجب أن يتصادقا ويتناصرا . أما إذا تكاذبا وتخاذلا فإن أحدهما لا محالة يكون باطلاً وضلالاً » (١) .

ومصداق ذلك أن الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى عندهم تبنَّت نظريات وآراء معيَّنة فى الفلك والفيزياء والجغرافيا وغيرها من العلوم ، وأضفت على هذه الآراء لوناً من القداسة الدينية ، وأصبحت جزءاً من معتقداتها ، التى يشب عليها الصغير ويهرم عليها الكبير . . فلما بزغ فجر النهضة العلمية فى أوروبا ، على أيدى جماعة من علمائهم ومفكريهم الأحرار - الذين تأثروا بالمنهج العلمى

---

(١) « الدين » للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٧٤ - ٧٨

الذى كان معروفاً فى العالَم الإسلامى - اصطدمت أفكارهم ومكتشفاتهم اصطداماً مباشراً بتلك النظريات المقدَّسة . وكان النزاع المرير المعروف فى الغرب بين العلم والدين (١) .

* *

● دور الدين لم ينته ولن ينتهى :

بقى ما يقال من أن الدين قد انتهى دوره ، وأخلى مكانه للعلم الحديث : ما مدى صحة هذا الزعم ؟ وهل يمثل حقيقة علمية أو منطقية أو واقعية ؟

والذى نجيب به مطمئنين كل الاطمئنان : أن هذا الزعم غير صحيح على الإطلاق ، فالدين ليس شيئاً طارئاً على الإنسان ، ولا امراً على هامش الحياة ، بحيث يُستطاع اطراحه والاستغناء عنه فى عصر من الأعصار .

* * *

---

(١) انظر فى ذلك كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » للأستاذ الإمام محمد عبده .